لينا غوبرمان
لعبة الذاكرة

إن دخول معرض لينا غوبرمان يشبه الولوج إلى مشهد من رواية The Borrowers للكاتبة Mary Norton. ففتيات صغيرات وواهنات يحملن على ظهورهن أشياء يومية جُمعت من الفضاء المنزلي لـ«الكبار». هشاشة الشخصيات وعزمها—المستوحاة من صورة الفنانة في طفولتها—تثير لدى الزائر إحساسًا بالثقل والارتباك، كعملاق يكتشف فجأة عالمًا سريًا موازيًا ومصغّرًا كان يتكشف تحت أنفه مباشرة. إن مجرد الوعي بوجود هذا العالم يبدو كاقتحامٍ لحيّز هشّ وحالم—تعدٍّ قد يهدد بقاءه ويجعل سكّانه يتناثرون ويختفون.

لينا، التي هاجرت إلى إسرائيل في طفولتها واندَمَجت في لغة وثقافة جديدتين، تشعر أن طفولتها تُركت وراءها، وأن أجزاءً منها مُحيت وتلاشت عبر السنوات. تستخدم صورها المصغّرة كجامعاتٍ للذكريات، يحملن شذراتٍ من الذاكرة منغرسة في أشياء ذات دلالة رمزية، متصلة ببيتها السابق وحياتها الماضية. إن محاولة استعادة ذكريات مكبوتة من الطفولة المبكرة هي سعيٌ للعودة إلى حالة ما قبل اللغة، ما يدفع لينا إلى ابتكار معجم رمزي يترجم الذاكرة إلى علامة بصرية.

الذاكرة—ذلك الكائن المراوغ وغير الموثوق—تميل إلى ملء الفجوات بين مشاهد الطفولة وذكرياتها، متبنّيةً حكايات رواها الآخرون كما لو كانت حكاياتها الخاصة. وهكذا يغدو كلّ سردٍ وكلّ ذكرى موضع شك، يتطلّب الفحص قبل قبوله وإعادته إلى نسيج حكاية طفولتها. تخيط لينا رقعًا من الذاكرة تتآلف معًا لتغدو بطانية من نحوٍ داخلي. إن تشكّل اللغة في الانتقال من الطفولة إلى الرشد عملية تنطوي على الخلق والفقدان معًا. فالطريق إلى الكينونة الأصيلة وتجربة الطفولة يبقى مسدودًا أمام الذات البالغة التي هاجرت من عالم الطفولة ولم تعد تتكلم لغته.

تكتب لينا غوبرمان:

«بعد سنواتٍ من محاولة النسيان، وإنكار ماضيّ وجذوري الثقافية كي أتيح لنفسي بدايةً جديدة في هذا البلد—انتقالٌ ترافق مع المراهقة والحاجة إلى البدء من جديد—أستعيد الآن ماضيّ: الطفلة التي كنتُها. الذكريات التي أستخرجها من أعماق الوعي تشبه كنوزًا في تنقيبٍ أثري. أنفض عنها الغبار؛ بعضها كامل، وأكثرها مكسور وجزئي. أعلم أن بعضًا منها ليس ذكرياتٍ أصيلة، بل استذكارات من طفولة مبكرة زرعها والداي في وعيي؛ وبعضها خيالات وشذرات أحلام. أجمعها جميعًا وأقبلها كقطع قماش في لحافٍ مرقّع منسوج من أقمشة متنوّعة، لكنها مجتمعة تشكّل الأساس لما أنا عليه—جذورًا يمكن أن ينمو منها المرء. ووفقًا لـVirginia Woolf، تحتاج المرأة إلى غرفة تخصّها كي تكتب؛ أما أنا فأحتاج إلى غرفة في قلبي، مملوءة بالماضي الذي فقدته، كي أبدع.»

يَعيل يعاري
بونساي

تملأ الحركة واللون والشكل الفضاء في الأعمال النحتية صغيرة الحجم التي تعرضها يعيل يعاري في معرضها الحالي. تُصنع هذه الأعمال من مواد لينة—أقمشة مؤلّفة في تنويعات من الألوان والأشكال—وتنشأ عبر عمل دؤوب ومتقن، يكاد يكون سيزيفيًا، من الخياطة والوصل والحشو والضغط. تراقب يعيل الطبيعة وتحمل الأشجار في قلبها. وفي المرسم، من دون "مرجع" مباشر، تكتشف فيها جوهرًا داخليًا ينطوي على إحساس بالكمال. وكأشجار بونساي مصغّرة («بونساي»، وتعني

حرفيًا باليابانية: "الزراعة في صينية")، تنبثق أشكال جمالية. كل «شيء–شجرة» هو عالم قائم بذاته—كثيف، ملوّن، مكتفٍ بذاته—يبدو غير معتمد على ما يجاوره.

أحيانًا تحمل «الشيء–الشجرة» سمات شجرة نمطية: جذعًا وأغصانًا وحتى ثمارًا. غير أن كل شجرة متفرّدة، تتشابك لتغدو شيئًا يُذكّر بعضو داخلي—أيدٍ، سيقان، أمعاء—مستحضرة إحساسًا بطرفٍ جسدي. إنها لا تشير بالضرورة إلى الطبيعة، بل تُبرز دلالة داخلية. يشعر المتلقي كأنه يقف بين أشجار، في «حديقة–لا حديقة»، حيث يتجاوز الكلُّ الشيءَ الفردي، شاهدًا على تنوّع الألوان وغناها وتعدّد الأشكال.

أما «التحوّلات» فهي أشكال شبيهة بالهيئات البشرية، بأحجام صغيرة ومتفاوتة، مضغوطة ومشكَّلة و«محنّطة» داخل جوارب أو بناطيل ضيّقة أو أقمشة مخيطة. هذه الكائنات شبه-الهيئية، بلا رؤوس ومؤلَّفة من عناصر تشبه الأطراف، تتداخل مع بعضها، متشابكة ومربوطة، لتغدو شبكةً ضرورية أو محتملة. كل «تحوّل» فريد ومختلف، يحمل قصته عبر اللون والشكل والعُقَد والوصلات. لكنها مجتمعةً تكوّن تركيبًا كاملًا يدلّ على الحركة والتحوّل وإمكان التغيّر—حركة دؤوبة تجمّدت في لحظة عابرة.

يقع الشكل والعلاقة بين اللون والهيئة في صميم عمل يعيل. فهي تبدأ من المألوف، من الواقع، وتنجح في تفكيكه وإعادة تركيبه إلى كيان يجمع بين الكتلة والفراغ، بين التعليق والثقل، حتى «تعلم» العين أنها أمام شيء غير واقعي. إن اللوحة اللونية المميّزة، وغياب الرؤوس، والأشكال البيومورفية العامة، تدفع نحو إدراك تجريدي للشكل واللون، إلى جانب إشاراتهما المألوفة ظاهريًا.

الإحساس العام المنبثق من «التحوّلات» ومن سائر المنحوتات هو إحساس بالتشابك—شيء يلتفّ ويتطوّر، حركة داخل مادة لينة تصل الإنسان بالطبيعة. تؤدي الشجرة وظيفة تمثيل الذات وموقف علائقي من العالم. ومن خلال تنوّع المواد والكثافة واللون، تُفحَص الحدود بين الطبيعي والمصطنع. وفي هذا السياق، يمكن استحضار أعمال Henry Moore النحتية، المعروف أساسًا بمنحوتاته البرونزية شبه التجريدية، وكثيرٌ منها معروض في فضاءات عامة حول العالم (وفي إسرائيل تقف منحوتة بارزة له في ساحة Tel Aviv Museum of Art)—أعمال استندت إلى العالم الطبيعي والجسد الإنساني. كما يمكن التفكير في منحوتات Jean Arp، أحد مؤسسي حركة دادا، الذي نحت أشكالًا مستديرة وناعمة تعكس عودةً إلى الطبيعة، وإبداعًا عفويًا غريزيًا، واتكاءً على مرونة النحت. تبتكر يعيل منحوتات تستدعي من الواقع ذكرى باهتة، لكنها قبل كل شيء تترك أثرًا—إحساسًا.

لؤلؤة لابنتي الحبيبة
ماتان بن توليلا

كما تُنسَج قلادة من اللؤلؤ، ينسج متان بن توليلا أعماله الفنية، محوّلًا حبّة رمل عادية إلى جوهر مكثّف من الجمال والنعمة—على غرار المحارة التي تصوغ لؤلؤتها. لقد حرّك تجنيد ابنته الكبرى في الخدمة العسكرية شيئًا عميقًا فيه، فاندفع يُعبّر، بالكلمة والشكل واللون، عن سلسلة من «اللآلئ» يوجّهها بحميمية وشخصية إلى الجيل القادم. ويهتدي متان بقناعة داخلية مفادها أن «ما يُنجَز بنيّة وإخلاص يترك صداه في العالم». تمنح أعماله عزاءً ورقّةً تشتدّ الحاجة إليهما في مواجهة تعقيدات الواقع الإسرائيلي. إن إمكان النظر إلى الواقع من زاوية مغايرة يفتح أمامنا الأفق ويمنحنا المساحة التي نحتاجها لالتقاط أنفاسنا.

يحيط بنا المعرض بطيف من النوافذ والفتحات—عتباتٍ إلى ما وراءها. بعضها مسنّن وممزّق، كثقبٍ شُقَّ في قماش أو كفم كهفٍ معتمٍ مفتوح على اتساعه. وبعضها الآخر معماريّ ومقصود: نافذة مفتوحة ضمن جدران فسيفسائية ملوّنة، إلى جانب فتحاتٍ لينة وديناميكية كستارةٍ تتمايل في الريح. جميعها تستدرجنا إلى التحديق من زوايا ووجهات نظر متعددة—من علٍ كعين الطائر، بنظرة نافذة، بلمحة حذرة، أو بنظرةٍ إلى الخارج تبحث عن منفذ.

إن التكرار الدائري في اللوحات يحوّلها إلى عيون وحدقات تُحدّق فينا. يدير متان فعل الرؤية بعناية، فيختار ما يكشفه ومقدار ما يحجبه. يبني لوحاته كما تُبنى اللآلئ، في طبقاتٍ متراكمة تضيف عمقًا وأبعادًا للصورة الآخذة في التشكل. يسود الأعمال جوّ حُلُميّ من التعليق والسكون، ربما بفعل الأجرام السماوية التي تنساب في فضائها—قمر أو شمس سوداء تعلو مشهدًا ضبابيًا، أو طائرة شراعية تحلّق فوق مياهٍ متلألئة. توحي هذه العناصر بعينٍ راصدة تراقب بصمتٍ من علٍ، وتغدو بمثابة بوصلةٍ تهدينا عبر المعرض.

وتكشف سلسلة من رسومات الغواش على الورق عن وجهٍ آخر من ممارسة متان الفنية. تظهر هنا اللوحة اللونية المشبعة نفسها، لكن بروحٍ أكثر تحرّرًا وانسيابًا، تعكس يدًا منطلقة وخفّة في التفكير. إن فورية العمل بالغواش تتيح لتيار الوعي أن يتسرّب عبر حواجز الإدراك، فاتحًا مجالًا لتجارب تعبيرية في اللون والنمط والحركة، تقف مستقلة إلى جانب اللوحات الزيتية المتقنة بعنايتها.

تقدّم الأعمال خريطة طريق للكيفية التي يصقل بها متان لآلئه. فهذه العملية تتطلّب مسافةً لرؤية النمط الأكبر، وقربًا للانتباه إلى أدقّ التفاصيل. تحتاج إلى تجرّدٍ وهدوء كي لا نجرفنا ضوضاء الخلفية، وإلى قدرةٍ على الإصغاء إلى الداخل. وتتطلّب حدّةً لالتقاط اللحظة الخاطفة التي يُتاح لنا فيها أن نلمح ما وراء شاشات الحياة. كما تستدعي انسيابًا حرًّا يفسح المجال للمفاجآت كي تطفو إلى السطح. وفوق كل شيء، تدعونا إلى الشجاعة لمغادرة الكهف ومواجهة الواقع ذاته، لا الاكتفاء بظلاله.